

# التراث .... ومساحة كبيرة من النقص

في ديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) لأدونيس

أ.م. د. نوافل الحمداني \*

يجسد التراث في الفكر العربي المعاصر إشكالية العلاقة بين الماضي والحاضر، وقد أثمرت هذه الإشكالية تباين المواقف منه حسب منطلقات وأيديولوجيات الرؤية التي تمثلها المؤسسات الثقافية أو المجتمعية، ومن ينضوي تحتها من أفراد منظرين ومتمبنين لتلك المواقف والرؤى، فانشطرت تلك المواقف إلى: ١- التسليم بقديسية التراث كونه يمثل حصانة الأمة ضد الانهيار فهو جذور الأمة ورسوخها أمام حضارات الأمم، ٢- الموقف الذي يحسب في تجاوز الماضي والانعتاق من قيده ورفض التسربل والاتباع له نجاح الأمة في حاضرها، ٣- الوسطية بين الموقفين، بمعنى الأخذ من الماضي مفيدة ورسينه، وتجاوز غير ذلك، هو البناء الصحيح للحاضر، والجذر التأصيلي لمستقبل واعد، وفي عدّ (أدونيس) أحد رموز الحداثة الشعرية، الذي كان موقفه من التراث يمثل أحد منطلقاته إلى الحداثة، ما يدعونا لعرض بعض ما دونه عن التراث، فهو مرة يتبناه أصلا لاستمرار الحاضر، إذ أن «الموروث الثقافي أصل ثقافتنا» الثابت والمتحول ١/ ٣٣، ومرة عنده «ناتج ثقافي معين يرتبط بنظام معين في مرحلة تاريخية معينة ولا يصح أن نسميه أصلا أو جوهرًا أو كلا»، الثابت والمتحول ٤/ ٢٠٧، وهو بذلك يعلن عن قطيعته مع التراث كونه حاضرا مهما في لحظته التي انتجته وليس بامتداد صلته إلى حاضر اليوم، إذ يرسم طريقه للحداثة الإبداعية من تخطي الماضي، فلا يمكن «أن تنهض الحياة العربية ويبعد الإنسان العربي إذا لم تتهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي» الثابت والمتحول ١/ ٦٤، باعتبار أن أي عملية إبداعية هي امتصاص للمؤثرات القيمية والرؤيوية الفاعلة في تشكلها الأدبي، وهو يعني بذلك أن «التراث الحقيقي هو المتغير من الناحية الإبداعية» الثابت والمتحول ٢/ ٩٤، ومن خلال هذا العرض الموجز لأراء (أدونيس) عن التراث، نجده غير واحد في رؤيته، ويلف طروحاته شيء من الضبابية وعدم الوضوح، ولاسيما إذا ما تذكرنا قراءته الشعر الجاهلي واحتفائه به، وفي تناوله (النفري) المتصوف، ثم خلعه لسلطة التراث وتجاوزها وهو يدعو للحداثة الشعرية، ومن زاوية اهتمامنا بمجال إبداعه الشعري الحدائوي أكثر منه مفكرا ومنظرا،





ما جعلنا نقترح الشعر هدفا لدراستنا للتراث عنده، يعمد أدونيس إلى الأحداث التراثية البارزة كي ينقب فيها، وقد يذهب إلى القضايا الأقل وضوحا لنبشها أو تلك الغامضة في التراث الديني والإنساني يستفتح مغاليقها، وفي أحيان أخرى يحاول أن يشوهها ولو على نحو مقصود، فهو دائما يتطلب مساحة كبيرة من النقض إزاء مساحة لا بأس بها من حرية الكلام يسوغها المجتمع، وديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) شهادات على التعري النفسي في الفكر المؤسسي للثقافة العربية إنه حفر ذاتي جريء وتمزيق ممنهج للقناعات الشخصية الراسخة لأفراد وشخصيات سوية، ولاسيما تغييره لدلالات التمثل في التراث على وفق آلية فكرية يكون فيه الاختلاف هو الأساس والإنموج، ويتجلى ذلك عبر :

### ١- الدين... والصدمة

إن أدونيس من أبرز الشعراء الذين لا نحتاج فيهم إلى دليل للبحث عن سمة التحايل الفكري، فهو «موسوعة ثقافية مختزنة...»، وتعد تجربته من أغنى التجارب الشعرية العربية عمقا في مجال المرجعيات النصية»، ومن ثم خوضه في قضايا ذات شأن كبير وأهمية بالغة في التراث الديني والتاريخي وسعيه لإثارة الشك بالمسلمات والحقائق الوجودية ذات الأبعاد الأيديولوجية والعقائدية، وبما يؤدي إلى جدل فكري محرك للثوابت القارة ويشكل اللحظة التاريخية للبنى، فاشتغاله تفعيل للأسئلة والنقاش الحر وترشيح لفكرة الانفتاح على فضاء الممكن، ويعد الدين واستخدامه لأغراض سياسية ومصالحية، مما يشغل أدونيس مفكرا وشاعرا معبرا عن رؤاه

الفكرية إزاء هذه الثيمة التي برزت بشكل واضح في خطابه الشعري، والتي لا نحتاج إلى الحفر في نتاجه للاستدلال عليها، ومنها قوله :  
ما أقول لأسلاني الآن؟ إن كان ثمة رب

/ احد واحد، فلماذا

لا يقول لأبنائه: سواء/ كلكم؟ ولماذا /  
يقول لأولئك: اقتلوا هؤلاء؟ لماذا

يفضّل هذا على ذلك؟ يُعطي لهذا / بيت  
ذاك؟ يُبيح لهذا

أن يسود؟ ويأمر هذا أن يكون له خادما  
وعبدا

يطرح النص متواليته اللغوية الباثية لمواقف الشاعر الفكرية والتصورية المرتبطة بالتجربة أو بالأيديولوجيا الاعتقادية ورؤيا العالم بشكل عام، وهو يحاول زعزعة بنية التفكير الجمعي ضمن علائقية من التساؤلات التي تقود إلى اللا جواب، وكأنه ينحى إلى خلق جو تصطرع فيه المتضادات بين الإثبات وعدمه، وبين الألوهة ونفيها، الحرية وضدها، ومستعملا حيله النسقية، التي استطاع من خلالها أن يصيب كثيرا من قرائه ومتابعيه والمعجبين به شاعرا ومنظرا بعمى ثقافي ليس بالقليل، ومنحه فرصة كبيرة لتمير أنساقه المضمرة .

و حينما يعرف أدونيس الشعر بأنه رؤيا، انما يحيل على ما جاء به القرآن الكريم، الذي يدعو للثبات والقيم الأخلاقية، وهو يرى أن نظرة القرآن الكريم للشعر والشعراء مهذبة وصارمة إلى حد كبير .

وما ذكره في كتابه الثابت والمتحول يؤكد هذا الافتراض حيث يعتقد ان ظهور الإسلام قد «نقل الشعر القديم ولغته من مستوى الطاقة الخلاقة إلى مستوى الأداة والوسيلة،

وجعل الشعراء أمرا نافلا يمكن الاستغناء عنه، فالشاعر في الإسلام ليس ذاتيا، وإنما هو جزء من الجماعة الإسلامية، فليس هو الذي يفكر، بل الجماعة، وليس هو الذي يكتب، بل الشكل واللغة، الأمر الذي أدى إلى ضعف الشعر كما ونوعا»، في حين يرى أدونيس أن الشاعر ذو إمكانية عالية توازي مرتبة الأنبياء الذين خصهم الله تعالى بالرؤيا .

ولكي يكون الإنسان العادي ذا رؤيا هي خرق للعادة يجب ان يكون ذلك بتدخل السماء (معجزة)، أي رسالة سماوية يبعثها الله: وبما ان الرسالة السماوية لا تكون إلا للأنبياء فان الشاعر يقابل النبي، والنتيجة يكون الشعر نبوة، ولا يمكن ان يكون الشاعر إنسانا عاديا، بل هو صاحب معجزة (نبي)، ويقدم قيمة مقترحة تسخر بانقلابية على ما هو ثابت في يقين الناس، :

يقرأ الطالعون من الوحي ما يتيسر منها: /  
زمن بائر ودم نافر / اهديهم أيها الشاعر  
لكن يبدو أن هذه النبوة التي اقترحها قيمة فكرية لرؤيا خارقة ما امتلكت عنده ثباتا دائما، ما جعله يفكر وعلى نحو مفاجئ في مغادرة سديميتها :

**قلقي فيك أن النبوة / لا تسافر في شرياني،  
في خلجاتي**

**قلقي أنها لا تلامس إلا / زبد الجسم  
والنفس والكلمات**

وقد بدت ملامح التراجع عما زعمه حقيقة يمكن أن تكون بديلا يكتسح بنية الوعي بالصادم ويهتك الحجاب عن ترميزها الملغز.

**٢- العرق واللون**

كان العرق على رأس المسوغات (الحيل) التي

يتذرع بها أدونيس في جر المتلقين الى سطوة غالبية تحيل لغة الشعر إلى لغة عالية تتمثل الأشياء الجميلة والقبیحة على حدّ سواء فكلُّ يجد معشوقه في شيء ظانا ذلك هو الكمال فيتخيله في أمر معين فيتوجه إليه ويتفانى في سبيله تفاني العاشق! مما يعني أن هناك أسئلة يقينية يستطيع ان يوجهها الشاعر لمجابهة هذه الفرادة في التشكيل الشعري، لهذا جوّز أدونيس لنفسه أن يتحدث في قضية تاريخية ذات بعد ديني كبير يرقى للمسائل العقائدية، وهي قضية هاجر زوجة النبي إبراهيم (ع):

**هذه سيرة امرأة عبدة وابنها / نفيت، لا  
لشيء سوى انها كسرت قيدها. ويحكى /  
إنها زوجت لنبي، / وان ابنها صار من  
بعدها نبيا. ولكن / لم يجيء في تعاليمه  
/ انها حررت**

ولعل هذا ما اعتقده كثيرون ممن أعجبوا بهذه النظرية (الشعر نبوة) وهي ما قاله (أدونيس) وباتت نظريته واقعا فكريا فرض سلطته عليهم، إذ نادى به قبله (جبران خليل جبران)، أليس من حق المتلقي أن يشعر أن للقبح جماله البارق وحسنه اللانع ألا ينبغي أن تكون له قناعات ومقدسات لا يجوز للأخريين التجاوز عليها أو حتى الخوض فيها؟ وبذلك تجاوز كثيرا من الحدود الفنية والفكرية وربما العقائدية، وراح يتحدث عن مسائل وقضايا كبرى في اللون، لها أبعاد دينية يحق له الحديث عنها بأي شكل من الأشكال في مجال الخلق الشعري .

**ماذا أقول لنفسي وتلك السماء /  
استعبدتني تعاليمها**



فهو يعتقد ان المجتمع العربي لم يغير بنيته العقلية والفكرية كما فعلت المجتمعات الأخرى لهذا «يبقى الشاعر العربي والمفكر في حالة انفصال عن المجتمع ومن هنا الشاعر الجديد يجب ان يهدم كل ما يبقي هذا المجتمع في التخلف وكل ما يحول بينه وبين التغيير والتجدد» .

**٣- التأريخ..هيمنة شاملة:** إن الثورة كما يراها هي ثورة فكرية شاملة، لا تسعى لتغيير نظام سياسي فحسب بل تصبو إلى إحداث تغيير فكري وجذري لقيم حضارية راسخة كثيرا ما يتجاوز فيها الشاعر قيم الزمان والمكان نحو تقانة بديلة تطرح ثيمة معينة معادلا موضوعيا لهذا التغيير.

**ها هو الآن يغفو / بلا فتنة / بلا شهوة / إنها مكة ؟ أتوهم**

**كلا إنها القدس؟ كلا / إنها زمزم**

يجعل أدونيس من نفسه المصلح والمصحح والمواجه للإرث التاريخي إذ كثيرا ما يعمد إلى التحرش بالتاريخ محاولا زعزعة بعض المسائل أو المواقف بدعوة الإصلاح الرؤيوي،

أي أنه ينزع إلى مشاكسة ثقافة الانجراف وراء حركة التاريخ، فيقول:

**ينظرون إلى رأي هابيل في حفرة / وقابيل يرقص**

أتراها الأخوة في حكمة الوحي قتل

إغواء أدونيسي يحيل القارئ إلى المرجعية التاريخية للنص، وكأنه بهذا العمل يحاول أن يثير في ذاكرة المتلقي مساحات من الحيرة والقلق لينتج حالة توتر شعري داخل لحظة اليقين التاريخي ويثير الاستفزاز لها، لذلك لا يمكن ان يقرأ أدونيس بعيدا عن حالة التراكم التاريخي الذي يتشكل في نسقه الثقافي أو يشكله في مرجعياته الثقافية تاريخا أدونيسيا موغلا في الخرافة.